مظاهر داء الشعور بالحقارة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

من الأمراض الاجتماعية التى حققها المفكرون حديثاً ، مرضان نفسيان : الأول داء الشعور بالعظمة ، وقد يظهر بمظاهر العظمة أو بمظاهر التواضع المكذوب الذى ينم عن الكبر ؛ وداء الشعور بالحقارة، وهذا أيضاً يظهر بمظهرين مختلفين : مظهر التواضع المتناهى وتحقير النفس ، ومظهر التعاظم الذى يراد به ستر مايشعر به المرء من احتقاره لنفسه . وهذا الشعور قد يكون مؤسساً على أمور في العقل الباطن فلا يتنبه صاحبه إلى حقيقة أمره ولا يعرف أنه مريض بداء الشعور بالحقارة

وقد يختلط المرضان لأن كلا منهما يظهر إما بالتعاظم وإما بالتواضع ، ويغالى فى التعاظم أو التواضع ، ولكن تعاظم المصاب بداء الشعور بالعظمة يكون مقروناً بشىء من الاطمئنان والثقة . وقد يبلغ الاطمئنان مبلغاً يجعل صاحبه لا يدرك سخر الناس ؛ أما تعاظم المصاب بداء الشعور بالحقارة فهو تعاظم يساوره القلق وغطرسة تنتابها حُمَّى الحقد والحسد ، فالخلط بين الداءين من هذه الناحية يدل على خطأ فى الاستقراء ونقص فى الخبرة وخطل فى التفكير . وكذلك الخلط بين تواضع المصاب بداء الشعور بالعظمة وتواضع المصاب بداء الشعور بالحقارة ؛ فالتواضع الأول مقرون بالثقة أيضاً ، ويظهر من ورائه اطمئنان صاحبه إلى عظم نفسه . أما تواضع المصاب بداء الشعور بالحقارة ، فهو تواضع يظهر من ورائه الحقد والحسد ؛ وليس من لوازم داء الشعور بالحقارة أن يجعل مظهريه مظهر التعاظم ومظهر التواضع فى رجل واحد في أوقات مختلفة . إنه قد يفعل ذلك ولكن كثيراً ماترى أنه يختص رجلاً بالتعاظم وآخر بالتواضع؛ وأكثر شيوع داء الشعور بالحقارة يكون فى الأمم التى لبثت عصوراً طويلة مغلوبة على أمرها ، ولا يهم التمييز بين أصحاب الغلبة فى تفسير نشأة هذا المرض الاجتماعى

وأكثر ضرر داء الشعور بالحقارة يكون إذا صال به وجال أناس قد بلغوا شيئاً من الجاه والمنزلة والثروة أو كانت لهم سلطة ، فإن اقتران القدرة به والنفوذ والسلطة مفسدة وأى مفسدة . وكذلك إذا كان صاحبه قدوة لغيره ، فإنه يفسد النفوس بما ينشره هذا الداء الوبيل داء الشعور بالحقارة من الأحقاد والضغائن والأكاذيب والشرور والحقارة والفساد ، ولا تستطيع أمة أن ترقى إلا إذا تمكنت من اقتلاع جرثومة داء الشعور بالحقارة من نفوس أفرادها ، وإلا إذا عالجته فى مدارسها علاجاً نفسياً صحيحاً بإطلاع الطلبة والتلاميذ على حقيقة نتائجه ، فإن نتائجه قد تظن محمدة واعتزازاً بالنفس ، أو قد تظن غير ذلك على حسب مايظهر به داء الشعور بالحقارة من المظاهر سواء مظاهر العظمة التى يساورها القلق والحقد والحسد أو مظاهر التواضع التى تساورها هذه الأمور أيضاً . ومن الحكمة جمع الشواهد والأدلة وتفسيرها ، فالغيبة والنميمة مظهران من مظاهره ولاشك، لأن منشأهما الرغبة فى الإستعلاء بوسائل غير مشروعة يتخذها من يشعر في نفسه بالعجز عن أسباب الاستعلاء الفاضلة لتمكن داء الشعور بالحقارة من نفسه ، وكذلك حب الظهور من شواهد هذا الداء وأدلته ولو كان ظهوراً يؤدى إلى ضياع الثروة والعقارات والفدادين . ومن شواهده الولوع بالفكاهة اللاذعة للسخر حتى بالغرباء ، كل هذه محاولات من المرء أن يقهر شعوره بحقارة نفسه وأن يقنعها بأنه أفضل من غيره . ومن شواهد داء الشعور بالحقارة أيضاً عدم احترام حدود الحق والواجب ، لأن العظيم حقاً يجد من عظم نفسه الحقيق ما يسليه عن الفشل فى نيل أمر تمنع من نيله حدود الحق والواجب ، أما الذى يشعر فى نفسه بداء الحقارة ، فإنه يرى فى طمس حدود الحق والواجب زيادة فى قدرته وعظمته وشفاء لما يشعر به من ألم الحقارة أو لما يتحسسه فى أعماق العقل الباطن من هواجس هذا الداء إذا كان صاحبه لا يدرك حقارة نفسه أو لألم الحقارة وهواجس العقل الباطن معاً . ومن شواهد هذا المرض وأدلته أيضاً الامتعاض من لباب الأمور ، فإن صاحبه يكره اللباب المحض الصريح لأنه يشعر أنه يبرز عجزه ويهتم للبهرج المزيف لأنه براق خادع ولا يكلف ما يكلفه اللباب . وليس من الضرورى أن يكون المريض بداء الشعور بالحقارة غبياً أو بليداً . وهذا الشعور بالحقارة قد يعظم فى نفس صاحبه حتى أنه قد يدفعه إلى الاثم والجرم الشنيع . وقد يصير جنوناً أو شبه جنون وحتى تصبح نفس صاحبه كالمفرزات القذرة التى يتصاعد منها الذباب الكثير الألوان ، فمن ذباب أزرق وذباب أصفر وآخر أسود وغيره أحمر إلى آخر أنواع هذا الذباب الذى ينبعث من الأقذار . وقد

يعظم داء الشعور بالحقارة فى نفس صاحبه حتى كأنما يخيل له أن الأرض لا تستطيع أن تحمل ثقل شعوره بحقارة نفسه وهى هي الأرض التى حملت الجبال وحملت الناس والحيوانات حتى الحيوانات الهائلة التي اندثرت قديماً ؛ وهى الأرض التى حملت طوفان نوح وفلكه المشحون وحملت حماقة الناس وآثامهم وغباوتهم وجهلهم من عهد سيدنا آدم ، وحملت الأرض كل هذه الأشياء ولكن كأن المسكين يخشى أن تلك الأرض نفسها ربما لا تستطيع أن تحمله وأن تحمل ثقل شعوره بحقارة نفسه . وهذا الشعور بالحقارة مما يزيد الحياة مرارة وألما . وله عدوى في بعض البيئات مثل عدوى الأمراض الجثمانية المعدية . ومن درس التاريخ عرف أن الأمراض النفسية تكون لها فى بعض الأحايين عدوى مثل عدوى الأمراض الجثمانية المعدية . أو لعل تلك الأمراض النفسية تكون مصحوبة بأمراض عصبية كمرض (الهستريا) . وقد شوهدت عدوى تلك الأمراض النفسية وشوهد وباؤها بصفة خاصة في عصور الانقلاب الفكرى والاجتماعى والاقتصادى وفى عصور الكوارث الطبيعية الكبيرة والثورات والحروب ، ولكنها تظهر فى شكل أقل شدة وحدة فى حياة الناس اليومية

وداء الشعور بالحقارة قد يصيب الغبي كما يصيب الذكى ، وقد يصيب الوضيع المنزلة كما قد يصيب الرفيع المنزلة الذى ارتفع بعد ضعة أو ارتفع أبوه أو جده بعد ضعة أجداده . وهو فى أشد حالاته يكون مصحوباً بجنون خلق لا يميز صاحبه الخير من الشر ، ولكن ليس كل جنون خلق يكون مصحوباً بداء الشعور بالحقارة

والشواهد على وجوده كثيرة ؛ فالوضيع الذى يتعالى ويتعاظم مصاب به ، والرفيع المنزلة الذى تصيبه حمى إذا رأى ميزة فى إنسان أو استضعفه وحاول القضاء عليه بوسائل تنجيه من العقاب والمؤاخذة . ومثله مثل الفلاح الذي يسلط الأشقياء على الناس لسبب تافه أو لغير ما سبب إلا حب الأذى وحب الظهور . وقد عرفنا أناساً من هذا القبيل يصابون (بالسادزم) نسبة إلى الكونت دى ساد الفرنسى الذي كان مصاباً بداء التلذذ بالتوحش والقسوة . فترى أن داء الشعور بالحقارة فى أشد حالاته يكون مصحوباً بالجنون الخلقى وبجنون التلذذ بالتوحش والقسوة . وسنحصى بعض شواهد هذا المرض فى مقال آخر

عبد الرحمن شكرى
المفتش بوزارة المعارف

من بحر الفكر

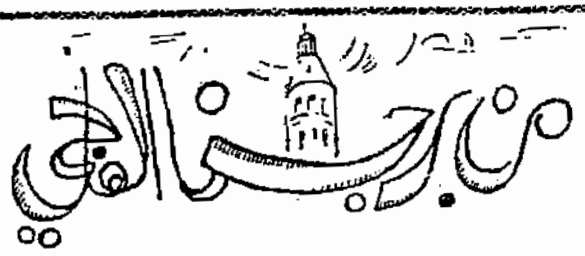

طالما جلست فى صباى ساعات طويلة أتأمل قوافل النمل تسير على الحيطان . وكنت أحياناً أدنو منها وأصيح بأصوات مدوية ، فما يبدو عليها أنها سمعت شيئا ؛ فالنظام هو النظام ، والخطى هى الخطى ، والتجارة الضخمة المحمولة على الأعناق : وهي جناح « صرصار » كبير ، ما زالت تتهادى مطمئنة فى طريقها إلى عاصمة المملكة العتيدة داخل ذلك الثقب البارز فى أسفل الجدار . وكانت الجيوش قد قاربت المدينة ؛ وخرجت جيوش أخرى تستقبل القادمين وتحمل عنهم بعض العبء . وكأن الجميع فى فرح وحركة ولغط لا يصل صداه إلى مسامعى الغليظة ؛ كما أن أصواتى الراعدة لا تبلغ آذان تلك المخلوقات الدقيقة . فحدثتنى النفس أن أحدث حدثاً فى تاريخ هذه « البشرية » الصغرى ، فأتيت بكوب من ماء وصببت مما فيه على القوافل الظافرة . ولبثت أنظر إلى الكارثة فى ابتسام ، فإذا شمل الجيوش قد تمزق ، وإذا الذعر قد دب فى الجموع . ولكن الفلول سرعان ما عادت تحمل « التجارة » من جديد فى حرص المستميت . عند ذلك أقصيت الكوب وقد تحرك قلبي وقلت في نفسى : إن هذه المملكة ولا ريب تأخذ الآن عبثي على سبيل الجد ، وأنها ولاشك تحسب ما حدث الساعة ظاهرة من ظواهر الطبيعة القاسية . فما هذا عندها إلا سيل العرم ، أو طوفان هائل ، أو قضاء هبط من السماء . وتأملت لحظة شأننا نحن « البشرية » الكبرى ، وقلت : من أدرانا أنا لسنا أحسن حالاً من هذا النمل ؟ ومن أدرانا أن ما تسميه ظواهر جوية وطبيعية من زوابع وأمطار وزلازل وبراكين ليس إلا عبث مخلوقات أخرى ذات أحجام وصفات لا نستطيع لها تصوراً ؟ ومن أدرانا أن ليست فى هذا الكون أصوات هيهات لآذاننا الصغيرة أن تدرك وجودها ؟ لم لا نكون نحن أيضاً نملاً أرقى من هذا النمل وأحط من نمل آخر من جوهر آخر لا نعرف ما هو ؟ إن الله لأعظم مما نظن ؛ وإن حواسنا لأقل إدراكا لما فى الكون مما نتخيل !

رفيعة الحكيم